

الفصل الثاني

القاهرة.. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفاً على ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهو نعمة فيها الحياة، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحي بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيداً عن شريط

الماء وضللت السبيل فستموت عطشاً إن لم يتداركك
البدو أو جماعة من المنقيين عن البترول، فالمطر نادر،
ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم في بيداء تمتد
بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسي
عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون
المفضل عند عجائز العقيلات في انجلترا لحفلات الرقص
يوصف بأنه أخضر نيلى، فاقترن النيل بخضرة يختص بها
- اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها
الفرشاة التي رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف
الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذي لا يلحق النيل فهو إباء الثبات،
فإن مجراه قد خضع ككل شيء في الوجود - لتصاريف
الزمن. والخضوع هنا تنظيمي، للقضاء على نزوات النهر
في الماضي. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول
بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو
مقياس النيل، عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلاً للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراغة مقياس للنيل في الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانها بالحجارة، في وسطه عمود له تاج من طراز كورنثي. و«الذراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزوماً وأجل خطراً من التكهّنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه في المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جذب..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع في أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحب بمقدمه في احتفال يسمى «وفاء النيل». أما في السنين التي يخشى فيها أن لا يفي النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقي وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها - أئمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ في كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة في القديم يحسبون الفيضان من دموع إيزيس
وهي تبكي على أوزيريس، وكانت لهم طقوس تتصف
بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهي رحيمة، إنها
طقوس زفاف النيل العاشق وعروسه «عروس النيل»
كانت في القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا
ببعض فتياتهم على قرون «ميناتور» الغول الذي نصفه
إنسان ونصفه ثور، ثم أصبحت العروس دمية في حجم
فتاة.

والآن تتولى السدود تنظيم النهر، فلن يتكرر جفاف
شهر يوليو الذي يعقبه، بشكل درامي، غمر الماء فوق
شواطئه الطينية العامرة بالفيران. لم يعد يتألف موكب
الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل في أوائل
الصيف فإنه علو قليل، حينئذ يشكو أهل القاهرة من
الرطوبة تضاف إلى الحرارة، فيهرب الأغنياء منهم إلى
الاسكندرية، رطبة هي أيضاً ولكنها اندى نسيماً، دع عنك
شكوى أهل القاهرة أيضاً من كثرة البعوض.

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت أيضاً

مرافقه، فأقدم موافى النيل على الشاطئ الشرقى
للقاهرة (أما منف فهى على الشاطئ الغربى) كانت
بالقرب من موقع بابيلون الرومانية إلى الجنوب من
القاهرة بنت اليوم. وفى القرون الوسطى كانت الميناء
هى «المقس» بالقرب من الموقع الذى يحتله الآن فندق
الكونتنتال وحديقة الأزبكية، وحى المتاجر والملاهى -
بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان
المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان
أرضاً عامرة بالبساتين والحدائق فى أوائل القرن التاسع
عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف. وفى القرن الثامن
عشر كانت الأرض التى تحتلها حديقة الأزبكية مكاناً
لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على أثر
التخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة
وجفت أرضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض
فوقها جيشه. أما ميدان باب اللوق - كما نعرفه اليوم -
بسوقه ومحطة الضاحية حلوان - فقد كان فى القرون
الوسطى مرفأ القاهرة - بابها من ناحية النهر، فلما بدل
النيل مجراه اختفى «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من

النهر بجزيرته «الجزيرة الوسطى الآن»، ثم اندمج حتى بولاق في بقية أحياء السكنى وضاع بينهما - كما ضاعت شلزي في لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهري للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تندفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك في اتجاه شارع الموسيقى، وكان هذا الخليج يضيء - فعلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديدة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليج محل القناة التي أنشأها الامبراطور الروماني تراجان لربط وادي النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام

هذه القناة إلى أن جددها عمرو بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن - وكذلك شارع الكورنيش - هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقاً أن أسماء الشوارع اسرع من مجارى الأنهار في التبدل.

وكان النيل في مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور - بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقي فيها بثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة في مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميراميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان في أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هي خمسة شلنات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الورااء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيهها صوت تلاطم الماء على جانبي الفلوكة. إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العيني إلى كوبرى الجامعة، وفي أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضى فى أسوأ موعد، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً - نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف في تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والبرقة في بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد في مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هى العوامات، قمیئة وإن تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

وتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر برز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملك السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفساح الماء في بلد

صحراوي ملك البلد كله. ويرجع الفضل في اكتساب
القاهرة لأهميتها إلى أنها واقعة حيث يتفرع المجرى
الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة
لتروى أرضا هي مضرب المثل في الخصب. والقاهرة
ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيرة أيضا
في يدها مقاليد أمة بلا منازع، ولكن أهلها خليط من
أجناس عديدة..